الفصل الخامس عشر

الجذور المصريّة لصلوات البشر وعباداتهم

obeikan.com

الجذور المصرية لصلوات البشر وعباداتهم

(أ)

الجذور الحفرية للإنسان

سبق أن أشرنا إلى ثلاثة الأنماط البشرية التى ظهرت منذ بضعة ملايين من السنين، وقلنا إنها ظهرت ـ أولَ ما ظهرت ـ فى مناطق «الساڤانّا» التى كانت مفضلةً لدى الأنماط البشرية الثلاثة:

الأول وهو الواقف على قدميه ونموذجه الحفرى «إنسان بكين» الذى كان يسلك كما يسلك الحيوان.

والثانى هو إنسان نياندرتال، ونموذجه الحفرى هو «إنسان نِياندرْتالْ» وعثر على أول هيكل عظمى له، فى وادى نياندرتال فى شمال ألمانيا.. وهذا الإنسان اكتمل بناء رأسُه ومَخُّه من خلال قوانين التطور، وكان قادراً على استخدام فمه وحنجرته وصدره فى «إصدر الأصوات» إلا أنه لم يكن يعرف اللغة والكلام، واللغة وسيلة عمل المخ فى التفكير (ترتيب الأمور) وفى الحوار الداخلى بين الإنسان ونفسه، فضلا عن أن اللغة نظام إشارى تسجيلى، يعتمد عليه المخ فى تسجيل الصور والذكريات والتجارب التى يمرّ بها.. حتى أن ماكس مولر (وهو من أقوى من كتبوا فى الأنثروبولوجى) يقول: «لو استطاعت الحيوانات تحويل الصوت عندها إلى لغة، يعمل بها المخّ، لتحوّلت الحيوانات إلى كائنات عاقلة، بصرف النظر عن شكلها.

والثالث هو **الإنسان الحديث** Homo-Sapiens الذى لا يختلف فى جهازه العصبى المركزى عن إنسان نياندرتال، ولكنه يختلف عنه فى القدرة على استخدام اللغة للاتصال بالآخرين، فضلا عن استخدامها كطريقة رمزية شفريّة (جبريّة) لعمل المخ والاحتفاظ والتخزين للمعلومات، وبدهى أن الإنسان الحديث، زادت مقدرته فى استخدام مخّه (الجهاز العصبى المركزى) مما منحه ذكاءً استطاع به أن يقضى على نمط نياندرتال.

☆☆☆☆☆

obeikan.com

(ب)

تحوّل الأسر البشرية لجماعات بتأثير عقدتى أوديب وإلكترا

كانت الأسر الإنسانية الأولى (فى مناطق الساڤانّا) لا تختلف عن مثيلاتها من الأسر الحيوانية.. إلا أن التصحّر دفع بالأسر الإنسانية إلى الاتجاه لوديان الأنهار أومناطق الغابات الكثيفة... حيث إن الماء كثير والخير وفير.. ونَمَتْ الأسر الإنسانية البدائية، وأنجبت أعداداً أكثر.. وكبر الصغار المعتمدون على الأسرة، وأصبحوا مراهقين، فنظر الولد الكبير إلى أمه باعتبارها أنثى بالغة، وتحرّش بأمّه جنسيّا، فطرده أبوه (جذر عقدة أوديب).. ونظرت البنت البالغة إلى أبيها كذكر كبير، وتحرّشتْ به جنسيا، فما كان من الأم، مالكة هذا الرجل، إلا أن طردتْ البنت.جذر عقدة «إلِكْترا».

وعاش الجيل الثانى، قريبا من الأسرة الأولى وكأنّه يحتمى بها، «وعرف الذكور والإناث من الجيل الثانى بعضهم»، وهذا التعبير مصرى أصيل نُقِل إلى العهد القديم، وهو كناية عن اللقاء الجنسى وتكوين أسرجديدة، وتعاقبتْ الأجيال.. وبدأت مشاكل تحتاج إلى تعاون الأجيال (كصد عادية وحش شرس، أو التجمع من أجل صيد كبير، أو ردّ هجوم عشائرى آخر..) وبدأت الجماعات أو العشائر الإنسانية الأولى تدرك حاجتها إلى قيادة للعشيرة.. وعادةً يفرض الأقوى سلطانه على الجميع، فإن كان الأب الأعلى

هو الأقوى، فهو الذى يفرض سلطانه.. وإن كان أحد الأبناء هو الأقوى فهو الذى يفرض سلطانه ويخضع له الجميع.. ولم يكن البشر فى تلك العصور السحيقة يحتاجون إلا للطعام والجنس، فإن البشر ما هم إلا آلة من آلات الطبيعة تحافظ على النوع وتساعد على تطوره.

ولّما لم تكن للأفراد أسماء، فقد جرى تشريط الوجوه[1] للتعرف على أفراد الجماعة وتمييزهم عن الجماعات الأخرى.

☆☆☆☆☆

(١) تشريط الوجوه بعلامات مميزة لكل عشيرة أمر شائع لدى الشعوب الموغلة فى القدم، وكان التشريط يتم باستخدام مخالب الطيور الجارحة لإحداث أثر عميق فى الجلد، بطريقة تمييز بعض نساء الريف دجاجاتهن عن دجاجات الآخرين بوضع بقع من الحبر.

(جـ)

استبداد «الأبونايم[٢]» رئيس الجماعة وإرهاصات العبادات

رؤساء الجماعات الإنسانية الأولى، لم يصلوا إلى الزعامة فى عشائرهم إلا بالقوّة والقسوة والجبروت والاستبداد، فكلّ واحد منهم ملك أو إله صغير، شرّط وجوه الجماعة، أو لم يشرّطها، فالجماعة ملك خاصّ له، ولابد وأن يحتفظ بقسوته أو جبروته، إذ بمجرّد شعور أحد شباب الجماعة بقوته، فإنّه ينحىّ الأول وقد يقتله، ويستولى على إناث الجماعة وخيراتها.

فى تلك الجماعات الأولى القائمة على الصيد والالتقاط لم يكن العمل كثيفاً.. ويلهو الزعيم أوالأبونايم ـ فى فراغه ـ بأفراد جماعته: فهذا الولد الذى يتراخى فى الصيد يوقفه الزعيم فى الشمس الحارقة، ويداه إلى جانبه (ممنوعاً من طرد الحشرات عن وجهه)، وهذه البنت التى أكلت من الثمار قبل أن يأكل الأبونايم، يجعلها تركع أو تسجد أمامه وقتا يرهقها ويؤدّبها.. وأحيانا يأمر الغلمان والشبّان الشرسين بالركوع والسجود له، أو الوقوف فى الشمس الحارقة واليدان إلى جانبه، حتى لا يهش عن وجهه حشرات الغابة.. وقد يسلّى نفسه بإجبار الإناث على الانحناء إلى أمام، أو على السجود،

---

(٢) أبونايم Eponym كلمة لاتينية (يُشَكّ بأنها من جذر مصرى) تطلق على زعيم العشيرة فى الجماعات البدائية صغيرة العدد، ولو اتّحدت العشائر يقودها نبُو المصرية وهى جذر نبى.

ليمتع نفسه بالنظر[1] إلى أجسادهن وقد يفرض الإبونايم، كما فى بعض رسوم الكهوف التخطيطية، على أفراد عشيرته أن يقوموا له إذا خرج لهم أو مرّ عليهم.. وإذا كان معجبا بالإبونايم السابق عليه والذى قتله وحش، فإنه قد يجبر أفراد القبيلة ليجمعوا أحجارا لتوضع على قبر الإبونايم السابق (كأنّه يتحسّب للمستقبل) وتلك الأحجار تمنع الضباع النابشة من أكل «الزعيم الراحل»، وقد يرتّب حراسة لقبر الزعيم الراحل، بل قد يصل به الأمر إلى حد تكليف الجميع بزيارة يومية لقبر ذلك الزعيم، أو الحج إلى قبره وتقديسه كل بضعة أيام.

وُجِدتْ رسوم تخطيطية فى كهوف مطمورة، يظهر فيها أفراد بحجم صغير، بجوار شجيرات فى الغابة، وقد وُضِعَتْ عى أفواههم حبال خشنة (كأنها من ليف النخيل) ومع هؤلاء الأفراد من يقودهم (وهو بحجم أكبر)، وفسّر الأنثروبولوجيون ذلك بأن الإبونايم كان يفرض على أفراد الجماعة الالتقاط وجمع الثمار والإتيان بها إليه دون أن يأكلوا منها شيئا، وكان يوكلّ بعض أتباعه بمتابعة ذلك (والأتباع المعاونون للإبونايم ظهروا فى الرسوم التخطيطية على جدران الكهوف بحجم أكبر من أفراد الجماعة تعبيرا عن صلتهم بالإبونايم ـ كما يرى الأنثروبولوجيون).. كذلك ظهر فى بعض الرسوم التخطيطية أن أعوان الإبونايم كانوا يربطون أفواه الأفراد بحبال من

---

(١) كُشف منذ منتصف خمسينات القرن العشرين عن أعداد كبيرة من الكهوف التى كانت مقرّا لأسر موغلة فى القِدم (فى العصر الحجرى القديم والحديث وقبل بدايات الحضارات الزراعية فى مصر وبابل وآشور وفارس...) ووُجدتْ رسوم تخطيطية بدائية على الجدران، أظهرت للأنثروبولوجيين معلومات كثيرة عن بشر تلك العصور وإبونايماتهم، وصُور التعامل مع الأفراد....

الليف أو الفصون اللينة، حتى لا يأكلوا شيئا مما التقطوا، قبل أن يأكل «الزعيم العظيم» كذلك، فإن الإبونايمات، لما كانوا يجمعون أفراد العشيرة لأمر هام، أو لأمرهم بأوامر معينة، كانوا يلزمونهم بالتطهر بالماء قبل التجمّع؛ دفعا للحشرات التى كانت تنهال على الجميع فى الغابة، وربما أنَفَةً من روائح البشر الكريهة فى ذلك الماضى السحيق.

☆☆☆☆☆

(د)

ظهور أنبياء مصر وجذور الصلاة والعبادات المختلفة

توحّدت العشائر المصرية، وصارت قبائل وبطوناً، وظهرت الأعراف والقيم والمبادئ ـ بتطوّر البنية الدنيا ـ وارتقتْ الأخلاق، وظهرت سلطة العقل الجمعى والضمير، وظهر «النّبُو»[1] المصريون (الأنبياء) الذين أشاعوا أن آلهة السماء تسعة، أوأن الرموز للآلهة تسعة (توت – آمون – آتون – رع – أتم...) وأن هؤلاء «يقيمون فى الأعالى» باعتبارهم رعاة الكون، كما أنهم قادرون على المنح والمنع وعلى الخير والشر.. ومن هنا أوصى هؤلاء الأنبياء بضرورة تقديم الصلاة للآلهة «الذين يقيمون فى الأعالى»... وما كانت العبادات المصرية إلابعثا لما كان يفعله الإبونايم فى أفراد عشيرته.. وما كان الوضوء والتطهّر بالماء إلا بعثا للأوامر القديمة للإبونايم التى تلزم بضرورة التّطهر بالماء قبل حضور التجمع...

وكان لابد لهؤلاء الأنبياء المصريين أن يعيشوا على «فائض إنتاج الآخرين» وكلما فاض من هؤلاء الأفراد خير، فإنه يكون للأنبياء ورجال الدين (ولله أيضا).

ولهذا فرض الأنبياء ما كان يفرضه الإبونايمات المصريون من صيام على أفراد جماعاتهم.

---

(١) «نبُو» كلمة مصرية قديمة تعنى «النبى» أو كاهن الإقليم..

(هـ)

الساميّون ينقلون العبادات عن مصر

جاء الساميون إلى مصر، وتتلمذوا فى المعابد المصرية، ونقلوا إلى قبائلهم فى شبه الجزيرة العربية (سواء كانوا عربا أو عبرانيين) ما رأوْه فى مصر من صلاة ووضوء وصيام وحج للقبَور... ثم ظهر أنبياء السامية ـ وهم كثيرون ـ وظهرت صلواتهم ووضوؤهم وصيامهم وحجّهم.. وفى الحقيقة فإنهم نقلوا التراث المصرى فى العبادات إلى متونهم وعباداتهم، فمصر هى المعبد الكبير الذى تعلّم فيه الساميون كافة العبادات وكافة الأساطير (الساتيرات عند المصريين) وكافة الشرائع والقوانين (كما يقول توماس كارلايل) كذلك تعلم فى مصر اليونان ثم الرومان، وكذلك تعلّم فيها ونقل عنها الفلسطينيون والفينيقيون والبابليون والأشوريين وكل أمم البحر المتوسط. وظهرت دعوة المسيح، ثم الدعوة الإسلامية، وبانتشار الدعوتين فى العالم، تعلّم البشر فى العالم أشكال العبادات ذات الجذور المصرية، دون أ"ن يدركوا ذلك.

وتأكيدا لانتشار العبادات المصرية من المعبد المصرى إلى معابد العالم، يوازن الأنثروبولوجيون بين عبادات مصر والساميين (عبادات العالم القديم) والعبادات التى عثر عليها لدى الشعوب المعزولة خلف الأوقيانوس العظيم فى استراليا والجزر القريبة منها، وتلك التى عزلها بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) فى الأمريكتين.. ويؤمن الجغرافيون بنظرية تقول: إن الأمريكتين

كانتا قريبتين من غرب أوربا وغرب إفريقيا فى عصور جيولوجية قديمة، لكنْ حدثت زلازل عارمة وعمليات انزياح للقارّة الأمريكية، حيث بعدت أمريكا وتكوّن المحيط الأطلنطى.. وفى عصور أحدث كان الاتصال قائما بين أمريكا والعالم القديم عند ممرّ «بهْرنْج» حيث عبرتْ حيوانات وعبر بشر أو أشباه بشر، ثم اتسع ممرّ بهرنج، وبعدت أمريكا بناسها وحيوانها.. ونما الناس فى الأمريكتين وتطورت الجماعات الإنسانية فى خطوط موازية لتطوّر البشر فى العالم القديم.. وظهرت عشائر فى أميركا وتحكّم فيها إبونايمات أو زعامات، ويبدو أن تلك الشعوب ـ فى بدائيتها ـ كانت من أكلة البشر، كما يبدو من الأحافير.. ولما درس الأنثروبولوجيون تلك الشعوب فى أوائل الكشوف الجغرافية، وجدوا شعائر التضحية بالبشر كثيرة، وهذا عكس ما كان شائعا فى العالم القديم (فى مصر والشرق الأدنى) بسبب نمو البنية العليا فى الأخلاق والقيم والشرائع والقوانين، فالكبش حلّ محلّ إسماعيل أو اسحق إرضاءً لله... كماحلّتْ الظبية محل الفتاة الموكينية (ابنة أجاممنن) فى الأسطورة التى نقلها إلينا أوفيد فى «مسخ الكائنات» وذلك إرضاء للربة ديانا.

ولاحظ الأنثروبولوجيون توقّف العبادات فى الأمريكتين واستراليا عند حدّ التضرّع والخشوع فيما يشبه طريقة السلام عند شعوب شرق آسيا.. تضرّعٌ وخشوع تصوّفى للرجل السماوى العظيم (الله).. ويعلل الأنثروبولوجيون ذلك، بأن أتباع الإبونايم فى أمريكا كانوا يتذللون ويخشعون أملاً فى النجاة بحياتهم.. ولما كبرت تلك الجماعات وصار لها ما يشبه الأنبياء نقلوا التضرع والخشوع الصوفى ليكون وسيلة التعبّد للرجل السماوى الكبير.

بقى أن نشير إلى أن الإنسان ابن الحضارات، قد نما فكره، ليس بمعنى أن المخ أنتج الفكر والقدرة العقلية فقط، بل بمعنى آخر، انتبه إليه «سيجموند فرويد» حيث يرى أن تطورا عقليا جديدا خص الإنسان وحدَه، وذلك بحكم تعقّد جهازه العصبى المركزى.. لقد صار الإنسان كائناً حساسا، تؤثر فيه المواقف والظروف، وبمعنى آخر صار «كائنا سيكلوجيا» تؤثر فيه الاعتبارات النفسية.. فالإنسان هو الكائن الوحيد «الذى يبكى» إذا تعرّض لموقف مؤلم أو لمحنة أو كارثة أوألم مُمِضّ، بل إن حزنه على شئ ما قد يربك بعض أعضائه المؤثرة (كالقلب. والمعدة) كذلك، فإنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذى تنفرج أساريره إذا ارتاح لشئٍ ما، وقد «يضحك» معبّرا عن سعادته ورضاه وتفهمه لموقف يراه.. وحين يستنجد «الإنسان البسيط» بالله قائلا: يارب أعنّى.. يارب نجنى. يارب ألهمنى الصواب فإنّه يشعر بذلك المدد الصادر عن اليقين والإيمان بقوى روحيّة قد تبادر إلى مساعدته، وقد تكشف عنه الضُّرّ.. ولا يتوقف «الإنسان البسيط» أمام الأدّلة التى تثبت وجود هذه القوى.. يكفيه الاطمئنان والإيمان الذى زرع فى ضميره عن أن هذه القوى تساعده كلّما ألحّ عليها وصلّى لها.

☆☆☆☆☆